رحلة الإيطالي كاسبارو بالبي عام (1579م) بين سورية والعراق (دراسة نقدية)

الدكتور محمّد خَلَف العجيل دكتوراه في الجغرافية الاقتصادية، محاضر في جامعة الفرات.

الملخص

تُعّد رحلة الإيطالي كاسبارو بالبي من أهم الوثائق أو الكتابات المدونة عن وادي الفُرات في سورية، فهي وثيقة مهمّة عن فترة تاريخيّة من فترات وادي الفُرات بأوضاعه الجغرافيّة والتاريخيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والأثريّة. جرت الرحلة في فترة مبكرة من تاريخ الدولة العثمانية (عهد السلطان مراد الثالث 1574 – 1594 م)، حيث تُعّد من أقدم الرّحلات إلى وادي الفرات (قبل 449 عام)، فهي تساعد على معرفة أفضل لوادي الفُرات خلال القرن الخامس عشر الميلادي .

يتناول البحث وادي الفُرات (السوري – العراقي) من خلال ملاحظات الرحّالة ومشاهداته، تلك المرحلة التاريخية تكاد تكون مجهولة للمنطقة، لذا أصبحت الرّحلات مرجعاً يمكن من خلاله فهم منطقة وادي الفُرات في تلك الفترة، وسيتم تحليل الرّحلة تحليلاً جغرافياً واقتصادياً واجتماعياً وأثرياً.

تصنف الرّحلات وفق نموذجين الأول منها يأخذ طابعاً رسمياً، أما الثاني فهو نموذج غير رسمي، يسيطر على الرحلات مدى قدرة الرحّالة على الاختلاط بالمجتمعات في وقت زيارته ليسجل انطباعاته الشخصية عنها ويوثقها في كتاب يمثل خارطة جغرافية أو بلوغرافية وسوسيوثقافية لمجتمع عايشه، تأتي أهمّية رحلة كاسباروا الإيطالي بعدة نقاط ، أهمها :

- تحتوي على معلومات تاريخية وجغرافية، حيث ذكر الرّحالة أسماء المدن والقرى، لذلك استفاد الجغرافيون ومصممو الخرائط من المعلومات الواردة فيها.
- احتوت الرحلة على معلومات قيمة، لاغنى للباحث في الجغرافية التاريخية لوادي الفُرات من الرجوع إليها، من هنا جاء البحث لدراسة هذه الرّحلة دراسة علمية، لمعرفة أهميتها .
- رحلة كاسبارو من أهم الرحلات بسبب قدمها الزمني وقيمتها العلمية .

الكلمات المفتاحية : رحلة ، رحالة ، الفرات ، موقع ، النشاط البشري .

المقدّمة:

تعد كتب الرّحلات بأنواعها(التجارية – الاستخباراتية - العلمية – السياحية – الأثرية - الدينية) ذات أهمية تاريخية وجغرافية واجتماعية واقتصادية، فهي تقدم وصفاً لجوانب الحياة كافّة، حيث يمكن الاستفادة من قيمتها الزمنية في توضيح الأحداث واستقرائها . كانت أسواق الشّرق الغنية تجذب الأوربيين إلى الاطلاع والبحث، فالرحّالة الأجانب كانوا يدونون في دفاتر يومياتهم (ممّا سمعوا وشاهدوا)، ما مر معهم في ترحالهم، رغم عدم خلو كتاباتهم من تحيز وتحامل في أحياناً كثيرة .

سجل الرحالة كثيراً من التفاصيل المهمة، كما كانوا شهود عيان على الكثير من التفاصيل الدقيقة التي تعبر عن الحياة اليومية لسكان وادي الفرات، وتركيباتهم السياسية والاجتماعية والقبلية، فإن عدم الاهتمام بالتوثيق والتسجيل، جعل من كتابات الرحالة مصدراً أساسياً لمعرفة تاريخ المنطقة، بل قد تكون، للأسف، مصدراً وحيداً لهذه المعرفة .

تعود أهمية طريق الفُرات النّهري كونه طريقاً مائياً سلكته سفن شعوب كثيرة، وكانت ضفتيه طريقاً برية مهمة، وكانت الضفّة الغربية بين مدينة الأنبار في العراق وبين حلب تعرف في العصر العباسي بطريق الفُرات. الفُرات كان جزءاً من طريق الحرير وهو طريق تجاري يمر عبر آسيا الوسطى وبلاد الرافدين، وكانت حلب محطة رئيسة على طول الطريق التجاري الشهير. وادي الفُرات من أوائل المناطق الجغرافية التي زارها الرحّالة حيث كان طريقا نهرياً آمناً مقارنة بالطرق البرية على جانبيه في فترة الدولة العثمانية التي كانت خطرة .

يعتبر الرحّالة كاسبارو بالبي من أقدم الرحالة الأوربيين الذين وفدوا إلى وادي الفُرات في أواخر القرن الخامس عشر، وإذا ما استبعدنا رحلة الهولندي الدكتور ليونهارت الذي قام برحلته في الفترة (1573م) ، يكون الجوهري الإيطالي كاسبارو من أوائل الرحالة الأوربيين الذين سلكوا طريق الفُرات النّهري، إذ أنها كتبت في الربع الأخير من القرن السادس عشر وهو في طريقه إلى الهند.

إن الرحّالة في إيراده أسماء الأمكنة، كثيراً ما يذكرها بصورة مصحفة أو مغلوطة، فكان ذلك من المشكلات التي حاولنا تذليلها، إن مثل هذه الأسماء أوردناها بحروفها الإفرنجية ليرى القارئ مبلغ ابتعادها عن التسمية المعروفة بها. كما أن بعضاً من الأسماء لم نتمكن من التوصل إلى حقيقة أمرها، فأبقينا اسمها بالإفرنجية كما وردت في الرّحلة، وجعلنا مكان اسمه بالعربية خالياً، وقد كان انتباه الرحالة للتفاصيل الجغرافية قليلاً، وقلما انتبه للتفاصيل الأثرية.

إشكالية البحث: يحاول البحث الإجابة عن الأسئلة الآتية:

- ماالمنهجية التي سار عليها الرحّالة كاسبارو في جمع معلوماته عن المواقع الجغرافية التي مر بها ؟
- ماالفئات السكّانية التي مر بها الرحّالة خلال رحلته بوادي الفُرات في العراق وسورية ؟
- ما أبرز أوجه النشاط الاقتصادي التي شاهدها الرحّالة في وادي الفُرات.

-كاسبارو بالبي ورحلته إلى وادي الفُرات (كتاب الرحّالة) :

أولاً : التعريف بالرحّالة كاسبارو بالبي :اسمه كاسبارو بالبي (Gasparabalbi) بن ترانكويللو، ولد بحدود عام (1550 م) في البندقية، لقبه الجوهري البندقي نسبة إلى مدينة البندقية، أسرته من البيوت العريقة في مدينة البندقية، والده كان يعمل قبطاناً في إحدى السفن المخصصة لحامية كريت . ولا يعلم شيئاً عن مطلع حياة كاسبارو بالبي، كل مالدينا من معلومات عنه أنه قرر الرحيل إلى الشرق في مرحلة كثرت فيها رحلات العمل والتجارة إلى الشرق الأوسط سعياً وراء تجارة التوابل والأحجار الكريمة وغيرها .

فاتح كاسبارو تاجرين في البندقية ليقرضاه بضائع مرغوبة في الشرق من أجل المتاجرة بها، لقاء أحجار كريمة يرسلها إليهما ، وتم الاتفاق معهما، وتسلم منهما ماقيمته (1044) دوكا (دوقية)، وعلى أثر هذا الاتفاق بدأ الترحال إلى الشرق عام (1579 م) في (13) كانون الأول، وهو في مرحلة مبكرة من حياته. مرت الأيام والتاجران ينتظران، ولم يصلهما خبر من بالبي، ولكن بالبي كتب رسالة في الأول من تشرين الثاني من نفس العام يشرح سبب تأخيره ومعاناته، طال الغياب، ومات التاجران وعاد بالبي عام (1588 م) ، فأقام ورثة التاجرين دعوة عليه وسجن أسبوعاً إلى أن خرج بكفالة لأنه لم يستطع إعادة المبلغ، ويرجح أنه مات بحدود عام (1625 م) ، وكان قد أصبح في ذلك الوقت صاحب محل جواهر .

من العرض السابق يلاحظ أن الرحّالة لم يكن على درجة علمية أو مثقفاً، فقد كانت لغته عادية وتفتقر إلى اللغة الجميلة والأسلوب الرفيع، فهو لايمتلك ثقافة أي أنه لايجيد النثر ولا يبدع في النظم، ويكثر الرحّالة من استعمال التعابير العاميّة المحليّة والمستعملة في مدينة البندقيّة، كان بالبي يحتفظ بدفتر يسجل فيه يوميات السفر، فهو يذكر التواريخ والساعات وأسماء المواقع الجغرافية، بحيث يستطيع القارئ تتبع محطات رحلته يوماً بعد يوم، وليس من الواضح أن بالبي يتكلم العربية أم لا، ولعله كان يستطيع التفاهم بها، فقد كان يسأل مرافقيه عن أسماء المدن والقرى وكتبها نقلاً عن السماع لا أكثر، فضبط بعضها وشوه بعضها في كتاباته .

أن كاسبارو وهو تاجر لم يكن - بالنظر إلى تخصصه في التجارة واهتمامه الأول بالموازين والمقاييس والعملات – يهتم كثيراً باستقصاء الحقائق والوقائع، أو تمحيص ماكان يسمعه من أقوال، ولم يكن يعتمد على ماسبقه من الرحالة أو قدامى المؤرخين إلاّ نادراً، ولذلك كان المصدر الأول للمعلومات التي أدرجها في رحلته هو ماكان يحدثه به رفاق السفر أو ماكان يتلقاه من أجوبة على الأسئلة التي كان يطرحها على عابري السبيل رغم أن الكثير من تلك الأجوبة كان مغلوطاً.

بعد عودة بالبي انكب على كتابة أخبار رحلته ثم نشرها عام (1590 م) في البندقية، واضعاً لها عنواناً طويلاً (رحلة إلى الهند الشرقية للجواهري البندقي كاسبارو بالبي التي تحتوي على ما رآه خلال تسع سنوات بين (1579مإلى 1588م) مع الحديث عن الضرائب والأوزان والمقاييس في كل المدن خلال تلك الرّحلة)، في عام (1605 م) ترجمت الرّحلة إلى اللغة الألمانية،ثم تُرجمت إلى الهولندية عام (1706 م)، وتُرجمت إلى الانكليزية عام (1625 م) .

ثانياً: هدف الرحلة: الهدف التجاري كان غاية الرحّالة ومقصدها، رحل إلى الشرق نحو عام (1579م) ، استمرت رحلته إلى عام (1588 م) ، حيث تابع طريقه إلى الهند، استغرقت رحلته تسع سنوات ميلادية

ثالثاً : مصادر معلومات الرحلة : استند كاسبارو بالبي في حديثه عن وادي الفُرات وأوضاعه، على مصادر المعلومات تميزت بالتعدد والتنوع، ومن أهمها :

المشاهدة والمعاينة: تُعّد المشاهدات العينية والمعاينة من أهم مصادر المعلومات التي تم الاعتماد عليها، وجمعها عن المناطق التي قاموا بزيارتها. وهي تُعّد أدق وصفاً وتعبيراً عن الواقع مقارنة بالسماع والقراءة [1]، إن أغلب المعلومات التي أوردها كاسبارو عن وادي الفُرات جمعت من خلال المشاهدات العينية كما يتضح من معلومات الرّحلة. وبالتّالي فإنّ المشاهدة هي المصدر الرئيس لمعلوماته في هذا المجال.

المصادر المكتوبة: اقتبس كاسبارو فقرات عديدة من رحلة فيدريجي البندقي الذي سبقه إلى الشرق بأعوام قليلة، وكان حياً يرزق عندما طبع بالبي رحلته، ولانجد تفسيراً لهذا الاقتباس والنقل الحرفي أحياناً، إلا أن يكون وجد نقصاً في بعض مراحل رحلته فالتجأ إلى النقل لملء الفراغ.

جمع المعلومات: كان من بين الوسائل التي استعان بها كاسبارو لجمع المعلومات في رحلته عبر وادي الفُرات الأسئلة والاستفسار من الملاحيين، والمسافرين، وأهل المناطق التي زارها. أي أن معلوماته مبنية على المعاينة والمخالطة والمجالسة والمصاحبة .

رابعاً : منهج كاسبارو بالبي في رحلته : اتسمت طريقة كاسبارو بالبي في كتابة رحلته بالسرعة في سرد المعلومات بعيداً عن الدقة والتفصيل جاءت رحلة كاسباروا سريعة في وادي الفرات في القسم السوري واتسمت كتابته بعدم الدقة في صورة جُمل قصيرة جافة ، وقد اتبع في ذلك المنهج الوصفي السردي، حيث كان يصف الأماكن التي يمر فيها خلال رحلته، بدون التعمق في البحث عن أصل الأشياء أو أسباب حدوثها كما أنه يميل إلى الاختصار، وتفتقر كتابته إلى الصور أو التعابير البلاغية وكانت الرحلة خالية من الخرائط والرسوم ، أما من جهة أخرى فقد كان دقيقاً من حيث ذكر التواريخ، والساعات وأسماء المواقع، حيث يستطيع القارئ تتبع رحلته يوماً بعد يوم ، فقد اهتم الرحالة بتحديد الأماكن التي زارها، والمسافات بينها، فهو عندما يتناول وصف طريق الفُرات، يذكر أسماء القرى والمدن التي مر بها، ووصف آثارها، وأوضاعها الاقتصادية والاجتماعية، وكان يسجل في دفتره أسماء المواقع الجغرافية أو الأثرية كما يسمعها منهم، وأخبار الناس وعاداتهم كما يفهمها من مرافقيه، لذا نجد في رحلته وصفاً للمدن والقرى، وملاحظاته عن المواقع الأثرية، إضافة إلى وصف للسفن والقوارب المستعملة في كل المناطق الجغرافية التي مر بها .

المنهجية التي اعتمدها الباحث في كتابة البحث، من خلال الإحاطة بالرّحلة، والمنهجية التي اتبعها في جمع معلوماته عن وادي الفُرات، ثم تبويبها حسب موضوعاتها، وتحليلها، ثم الحكم عليها وعلى أهميتها الجغرافية والتاريخية .

- **الأوضاع الجغرافية والتاريخية والاقتصادية والاجتماعية لوادي الفُرات في سورية من خلال رحلة كاسبارو عام (1579 م) .**

[1] - **نواب،** عواطف محمد يوسف، 2008 م، كتب الرّحلات في المغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين (11 – 12 هـ)، دراسة تحليلية نقدية مقارنة ، ط1 ، دار الملك عبد العزيز، ص (100 - 122) .

حلب: غادر الرحّالة حلب باتجاه بغداد في 13 كانون الأول عام (1579 م)، مع تجار كثيرين منهم نصارى إضافة إلى أديان أخرى، حيث يقول : فحملنا الأموال والبضائع على الجمال والبغال، وامتطينا الخيول، ووصلنا إلى منطقة الباب (bebbe) في مساء اليوم الأول، بعدها باتجاه مكان يسمى الساجور (saguir) وهو الآن بلدة تقع على الرافد الساجور أو الصاجور ، ثم باتجاه البيره (albir) التي تقع في الجهة اليسرى من نهر الفُرات (الجهة الشرقية) ، حيث تمّ تعبير البضائع بواسطة قارب تمّ إعداده في البيرجيك، وقد تمّ نقل البضائع بسرعة إلى المدينة خوفاً من اللصوص، أي أن الوصول كان على الضفة اليمنى والمرافئ على الضفة اليسرى لذلك تطلب عبور النّهر إلى ضفة المرفئ عبر القارب الذي تم إعداده، استغرقت الرّحلة من حلب إلى البيرجيك يومين، نستنتج أن نستنتج عدد من النقاط في المرحلة الأولى من الرحلة (المرحلة البرية) :

- الوضع الأمني بين حلب والبيرهجك كان سيئاً حيث كان الرحّالة يخشى من اللصوص والقتلة ومسيطر عليه الخوف ، وأبقى أربعة رجال يقومون بحراسة قارب البضائع ليلاً ونهاراً، ويقول أن الأفكار السوداء كانت مسيطرة عليه لأنه كان قد سمع أن قافلة محملة بالحرير داهمها اللصوص وسرقوها وقتلوا ثلاثة رجال وجرحوا اثنين آخرين.

- الوضع المُناخي كان قاسياً فيصف الطقس في الخامس من كانون الثاني بأنه شديد البرودة، إضافة إلى تساقط الثلوج والأمطار وهبوب الرياح .

- يعلل الرحّالة عدم تعرض اللصوص لهم لأن رئيس القافلة كان انكشارياً [1]، إضافة إلى وجدود عدد كبير من المسلمين.

- أن سنجق بيره جك كان مركزاً لصناعة القوارب، أو مايعرف بالشختور جمع شخاتير، فهو يصف صناعتها وصفاً دقيقاً، بقوله تصنع القوارب من ألواح مزدوجة لكي لا تغرق في حال اصطدامها، وأن الفراغات كانت تسد بالقطن وهذا دليل على أن زراعة القطن كانت منتشرة. ويؤكد ذلك الرحّالة الهولندي الدكتور ليونهارت راوولف بأنه شاهد مساحات مزروعة بالقطن في البيره[2].

= كانت حلب مركزاً تجارياً ومالياً لأن الرحالة كثيراً ماكان يقارن العملة التي كان يحملها من البندقية بمثيلتها في حلب والبندقية .

في بيره جك كان يوجد سنجق [3] مدينة بيره جك، وقدمت له الهدايا (أربعة رؤوس سكر –أربع شموع عسل – وقطع من الصابون، أما الكتخدا (موظف لمساعدّة السنجق) فقد قدم له هدايا أيضاً (رأس سكر – وشمعتين _ وقليل من صابون مدينة حلب) ، أما الأمين الذي كان يستوفي الرسوم فقد قدم له هدايا عبارة عن(رأس سكر وقالب صابون) .

---

[1] - كانوا يعرفون باسم ينجرية أي الجند الجديد (تركيا) ويكتبها الأتراك (يكجري) ويلفظون الكاف نوناً، وهم جنود مشاة في الجيش العثماني لعبوا دوراً مهما في الدولة العثمانية ودام أمرهم من القرن الرابع عشر حتى عام 1826م عندما تمردوا وطغوا قضى عليهم السلطان محمود الثاني (عماد عبد العزيز يوسف ، تمردات الانكشارية في الدولة العثمانية ، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية ، جامعة الموصل ، المجلد 9 ، العدد 4 ، ص 8).

[2] - ليونهارت راوولف ، رحلة الهولندي في النصف الثاني من القرن السادس عشر، الدار العربية للموسوعات ، بيروت ، 2008 ، ص (8) .

3 - السنجق أو السنجاق لفظة تركية تعني العلم المنصوب على سارية مدببة الرأس، استخدم إلى جانب اللواء للدلالة على الوحدة الإداريّة التي تلي الإيالة في التقسيمات الإداريّة العثمانيّة، (فاضل بيات ، الدولة العثمانية في المجال العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ،بيروت ، 2007م ، ص(58) .

نستنتج من المحطة الأولى من محطات سفر الرحالة عدد من النقاط هي :

- أن المسؤول الإداري التابع للدولة العثمانية ومساعديه كانوا يأخذون الهدايا إضافة إلى الرسوم أو الضرائب التي يحصلون عليها من مرور السفن المحملة بالبضائع، فيقول أنهم دفعوا ضريبة مقدارها (19) بندقيّاً[1]عن كل مركب، وهذا يدل على أن الدولة العثمانية كانت تأخذ عملات غير العملة المتداولة بين العثمانيين.

- الهدايا كانت عبارة عن سكر وشموع وهذا يدل على أنها كانت هداية ثمينة في تلك الفترة التاريخية.

- الصابون كان الرحّالة قد اشتراه من حلب فيدل على أن صناعة الصابون كانت مزدهرة في حلب في تلك الفترة.

- يحدد الرّحالة ثمن الهدايا فيقول مثلاً أن شموع العسل يبلغ ثمن الواحد منها شاهياً[2]أي مايعادل في نقود البندقية عشرين فلساً .

- كان في البيره جيك ملاحون مستأجرون يأخذون ثلاث بندقيات لقاء إيصالهم من بيره جيك إلى عانة إضافة إلى المصاريف الأخرى (الأكل والشرب) .

من بيره جك يتابع كاسبارو رحلته فيقول انطلقنا من بيره جيك وتوقفنا عند قرية غير بعيدة تسمى كفرى (caffra) وتقع على ضفّة الفُرات اليمنى (ذكرها جيسني (الخارطة رقم 2) وراو ولف في رحلة المشرق : 104 إلا أن المترجم كتبها كسرة لتشابه الفاء والسين بالأحرف الإفرنجية في الطباعة القديمة) ، بعدها إلى موضع يقال له مكسارة (cerchismaxara) لعلها مغارة أو تل مغارة كما ذكرها جينسي على ضفّة النّهر اليسرى، ويقع قبالته موقع يقال له جركيس (أو كركيس كما ذكرها جيسنيجركيس أو كركيس هي كركميش أو جرابلس) ويذكر الرحّالة أن سبب التوقف هو ارتطام المراكب بقاع النّهر بسبب الحمولة الكبيرة ،هذا يعني أن عمق النّهر كان ضحلاً، كما أن قاع النّهر في بعض المناطق صخري فيؤدي إلى تحطم المراكب أو توجد جذوع أشجار كبيرة مخفية تحت الماء تؤدي إلى تحطم المراكب، ويحذر بالبي بعدم تحميل المراكب أكثر من طاقتها، فهناك احتمال كبير للاصطدام بالصخور أو بجذوع الأشجار الكبيرة المخفية تحت الماء والتي لاترى عادة .

نستنتج هنا من كلام الرحّالة نقطة مهمّة، وهي أن الدولة العثمانية كانت تستخدم نهر الفُرات في نقل العتاد ونقل المسؤولين من الشخصيات المهمّة، حيث يشير كاسبارو إلى حادثتين:

الأولى: مرت سفينتان عثمانيتان محملتين بالرصاص من بيره جيك إلى حامية بغداد من أجل صنع العتاد بقيادة جاويش [3]، ويذكر الهولندي في أثناء وجوده في البيره أن سفينة كانت محملة بالقمح لنقله إلى بغداد بسبب ندرته هناك بسبب شدة الحر وانحباس الأمطار .

1 - من النقود المتداولة آنذاك في البندقية وتسمى (zecchino) ، وهي عملة معدنية فضية .
2 - نقد عثماني صغير، عرف بهذا الاسم لأن السلطان العثماني اتخذ لقب الشاه عند استيلائه على بعض أقسام إيران (دوزي ، تكملة المعاجم العربية ، تكملة2 ، ص ، 132) .
3 - صف ضابط من رتبة صغيرة يعهد إليه أعمال مختلفة ويعادل رتبة رقيب

الثانية : مرور سفينة تقل شخصاً مهماً برتبة بيك[1]إلى البصرة ، أي أن الدولة العثمانية في بداية وجودها في المنطقة العربية استخدمت نهر الفرات كطريق نهري لنقل العتاد والجنود والضباط .

بعدها تابعت الرّحلة مسيرها إلى موقع يقال له تل ويوي (teileuiui) على الضفّة اليسرى لنهر الفُرات، في هذا الموقع يقول الرحّالة إن السفن غرزت في الرمال، بعدها باتجاه موقع يقال له متاو لنتاكي (mataolantache) على الضفّة اليمنى [2] ، ثم تابعت الرّحلة مسيرها باتجاه قلعة نجم (catatelnegiur) ووصف القلعة بأنها قلعة مهجورة تقع على الضفّة اليمنى لنهر الفُرات. ثم باتجاه سوق النصير على الضفّة نفسها (zoxeniasir) .

يذكر كاسبارو أنهم عندما ربطوا سفنهم على شاطئ الفُرات عند قلعة نجم تعرضوا لهجوم من قبل اللصوص، وجرت معركة بينهم تمّ استخدام (البنادق والسهام) ويقول عن اللصوص بأن مصدر عيشهم الوحيد هو السرقة، تابعت بعدها الرّحلة باتجاه موقع ميسارافي (miserafi) على الضفّة اليمنى لنهر الفُرات، بعدها باتجاه قلعة باليس (beles) على ضفّة الفُرات اليسرى، حيث ذكر أن اللصوص موجودون بكثرة، ووصفه النّهر في تلك المنطقة بأنه تكثر فيه القيعان الرمليّة الضحلة، والموانع الصخريّة، وجذوع الأشجار المغمورة في المياه، تابعت الرّحلة مسيرها باتجاه موقع يقال له مليو زراعة (meliolzura) على الضفّة اليمنى لنهر الفُرات، ويذكر الرّحالة أن إحدى السفن غرقت بسبب ارتطامها بجذع شجرة كبير وأن اللصوص هاجموا السفينة التي غرقت لنهب محتوياتها .

سارت الرحلة باتجاه موضع يقال له قلعة جَعْبَر (chalagiabar) على الضفّة اليسرى لنهر الفُرات، بعدها باتجاه منطقة سماها الحمام (alaman) ذكرها معظم الرحالين باسم أمان أو حمام [3]، بعدها باتجاه منطقة سوريش (suriech)، ثم إلى بلد سوريا (beletsurie) لعله يعني أرض سوريا.

بعدها واصلت الرّحلة مسيرها باتجاه الرّقة[4]، ويصف الرقة بأنها تقع في أرض منبسطة، وفيها قلعة ضمن حصن، ويحكم الرّقة سنجق تركي[5] ، وقد تعرضوا في الرّقة إلى حملة تفتيش لأن رئيس السنجق كان يريد حصته من الأقمشة الصوفيّة، فوجد الجنود أربع أطوال من القماش الأحمر، وقصوا سبعة أذرع يريدها من أجل صناعة جبة في أثناء ركوبه الحصان، حيث أخذ كامل القماش ولم يدفع ثمنه، وقد ذكر الرحالة الهولندي الدكتور ليونهارت راوولف في رحلته نفس الأحداث ، حيث يقول ، ولما كنا أغراباً فليس من المستعبد أن يعتبرنا القوم (وهم كثيرو الشك) من المشردين أو الجواسيس، وعندها سينتهزون الفرصة مباشرة (مثلما اعتاد الأتراك أن

1 - لقب اعتبار اجتماعي أو عسكري . (دوزي ، تكملة المعاجم العربية ، تكملة1، ص ، 506) .

2- متاو الإنطاكي هو موقع مثوى الإنطاكي وقد أخطأ المترجم في كتابة الاسم .

3 - الحمّام : ذكرها الرحالة هنري سواينسونكاوير، رحلة عبر الجزيرة الفراتية عام 1893، وقد وجدت خلال سيري على الأقدام العديد من أحجار الصوان، وربما تكون أثراً من آثار العصر الحجري المدهش الذي يبدو في كل مكان، ص 114.

4 - الرَّقة : الرقة في المعاجم العربية من مادة رق وجمعها رقاق الأرض التي يغطيها الماء ثم ينحسر وينضب عنها أي مايضاهي التسمية العراقية (الحاوي) وهو جرف النّهر مابين ضفته العالية وحد الماء الجاري . وقد وردت اللفظة في اللغة الأكادية (البابلية والأشورية) بهيئة رقتو ، بالمعنى نفسه تقريباً رقيتا، ووردت في البابلية في استعمالات لها علاقة بالنّهر مثل (رقة النّهر – رقة ناري) . طه باقر ، ص 92سماها اليونان (نيقوفوريم – nicephorium) وشيد عندها المنصور (772 م) مدينة جديدة دعاها الرافقة أو الرفيقة، وعمرها الرشيد وجعلها بمثابة عاصمته الصيفيّة، وعرفت باسم مدينة الرشيد . وفي الآرامية وجمعها رقاتو وهو الجمع المؤنث السالم في الأكادية المطابق للعربية .

5- يحكم الرقة حاكم تركي وليس سنجق لان السنجق مثل الإقليم.

يفعلوا ذلك) فيفرضون علينا إتاوات أو ضرائب فادحة [1]. وتحدث عن حرفة النجارة في إيالة الرّقة فقد قالفي رحلته ، كانت إحدى زوجات أمير العرب(الموالي) بنت رجل يمتلك معملاً للنجارة في الرّقة .

بعدها تابعت الرّحلة مسيرها باتجاه منطقة الحمراء (elamora) التي تقع على الضفّة اليمنى لنهر الفُرات[2].

توجهت الرّحلة بعدها نحو موضع يقال له أمان (aman)، حيث توقفت السفينة لأنها ارتطمت في الرمال في محل مليء بجذوع الأشجار المخفية تحت الماء، وكان الخوف من اللصوص مهيمن على فريق الرّحلة، ثم تابعت باتجاه منطقة خواجا أبو العيناء (auagiaabulena) [3]، ثم إلى القصبة (casabi) وهي على ضفّة النّهر اليمنى (القصبي)[4]، بعدها باتجاه قلعة جلبي (celbi) حيث وصفها بأنها قلعة مهملة ومدينة مقفرة وهي على الصفة اليمنى وفي مقابلتها قلعة متهدمة تسمى سلبي (zelebe)، وكتب الرحالة حلبية وزلبية خطأ (جلبي – سلبي) .

أما وصف الطريق بعد قلعة حلبية وزلبية فيصفه بقوله : إنهم مروا بمحاذاة جبل عظيم شكله يوحي بأنه سينهار لأنه كان مقعراً في أسفله، كما تساقطت كميات كبيرة من الصخور الضخمة في النّهر من هذا الجبل، إضافة إلى وجود حجارة عظيمة على جوانبه تهدد بالانهيار .

تابعت الرّحلة مسيرها وتوقفت على الضفّة اليمنى، وقد فهمتُ بأن هذا الجبل يسمى الطرف الطويل (eltoreftrouil) ، بعدها تابعت الرّحلة مسيرها ويذكر أنهم مروا بمنحدرين تكثر فيهما الصخور المتساقطة من الجبل (جبل الطريف) [5]وهذا أدى إلى ارتفاع مستوى منسوب مياه نهر الفُرات بحدود قامتين عما يليه، وهي عبارة عن منحدر مائي، حيث ارتطمت بعض السفن بالصخور، نستنتج من ذلك : أن نهر الفرات في منطقة الطريف يتصارع مع الجبل وقد أزال بعض امتداده ونشأ جدار صخري مفتت يصعد بانحدار شديد وسط الماء، بعدها وصلت الرحلة إلى مدينة تدعى الدَّيْر (elder)[6]وكانت تسمى قديماً ميناء السلسلة، ويقيم في هذه المدينة سنجق (والٍ) تركي وقاض، أما وصف المدينة فقال أن مدينة الدير عامرة بالسكّان من رجال أشراف ونساء بارعات الجمال لهن بشرة بين بيضاء وسمراء وهن أكثر جمالاً من أي موضع آخر في تلك الأرجاء (وعند وصف بغداد من قبل الهولندي ليونهارت راوولف وصف المدينة بأنها قرية كبيرة أكثر منها مدينة

---

[1] - رحلة الهولندي الدكتور ليونهارت راوولف ، مرجع سابق ، ص 108، ص 149 .

[2] - الحمراء : هي الحمرات شرق الرقة، ويذكر موسيل في رحلته استرحنا في الجنوب الشرقي من الرقة في المزارع القريبة من خرائب الحمرا ،ص(136) .

[3] - يمكن أن يكون أحد شيوخ الموالي.

[4] - القصبة : هي القصبي وهي قريبة جداً من حلبية وزلبية . القصبي : قرية في وادي الفرات ، تتبع ناحية التبني ، محافظة دير الزور ، تقع على الضفة اليمنى لنهر الفرات ، تبعد 26 كم شمال غرب بلدة التبني . عرفت في العهد البيزنطي والعهد الإسلامي الأول (تل القصبي) ، المعجم الجغرافي السوري ،الجزء الثالث ، ص (562) .

[5] - الطريف : قرية في وادي الفرات، تتبع ناحية التبني ، محافظة دير الزور ، تقع على الضفة اليمنى لنهر الفرات ، تبعد(16)كم جنوب شرق بلدة التبني ، تجاور المنعطف النّهري ، المعجم الجغرافي السوري ، الجزء الرابع ، ص(205) .

[6] - الرحالة هنري سواينسونكاوير، رحلة عبر الجزيرة الفراتية عام (1893 م)، يقول أن الدَّيْر بنيت على تلة قليلة الارتفاع ، ويقال أنها نسخة من مدينة سابقة، مبنية على ضفاف الفرات الذي تقسمه جزيرة في هذه المكان، لم تكن هناك نباتات ولا منحدرات قرب النّهر، الذي هو بكل تأكيد فرع من فروع نهر الفرات ، وتتكون المدينة من طريق طويل يمتدّ بمحاذاة الفرات ، ص 126 ، فيما يتحدث الرحالة نيبور عن مكان اسمه (دير) تبعد عن البصرة بيوم واحد ، ص(105) . الدير : مسكن الرهبان والرهبات . وأصلهُ الواو عن الجوهريّ ، جمع أديار و دُيُورة وديارات وأديرة .

نستنتج: أن الرحالة بالغ في وصف مدينة الدير مقارنة بمدينة بغداد التي شبهها الدكتور ليونهارت بأنها عبارة عن قرية كبيرة .

تم تقديم هدايا للوالي، حيث قال : إنَّ العناية التي لقوها في دير الزور لم يحظوا بها في أي مكان آخر.وقد استغرقت الرّحلة من البيرجيك إلى الدَّيْر تسعة وأربعون يوماً .

يقول كاسبارو إن مدينة الدَّيْر كانت تسمى قديماً ميناء السلسة، ويعلل التسمية بأنها نتيجة الصخور العظيمة التي مروا بها وتقطع النّهر في أكثر من موضع وهي أشبه ماتكون بالحواجز، ويذكر أن هذه الحواجز قديمة، ويقول :إنه رأى في مواضع عديدة من تلك الصخور مسامير مثبتة فيها، لها رؤوس متجهة عكس مجرى الماء وبعض تلك المسامير كانت كبيرة جداً، وهي مغمورة تحت الماء بمقدار ذراعين، وعند سؤاله عن السّبب قيل أنه من عمل الأقدمين الذين إذا داهمهم الأعداء في سفن منحدرة مع مجرى النّهر تصطدم بهذه الحواجز المخيفة لإغراقها، أمّا الرسوم التي تمّ دفعها في الدَّيْر فهي ست بندقيات، وقطعتين من فئة المؤيدي عن كل سفينة .

يعد نهر الفُرات سوراً دفاعياً طبيعياً لمدينة دير الزور وعنصراً مهماً للحياة الاقتصادية، حيث عمل السكان الجسور فوق النّهر وأصبح قديماً في كل مدينة ميناء يعد جزءاً منها وازدادت بذلك التجارة واستقرت الأمور الاجتماعية باستقرار الأمور الاقتصادية، وبعد ذلك استقرت الأمور الاجتماعية والمعيشية للإنسان (عطية ، 2008). يصف كاسبارو نهر الفُرات بعد خروجهم من الدَّيْر فيقول: مررنا في موضع ضيق أو حاجز من الصخور، وكانت المسافة بينها ضيقة جداً، حتى أن السفن بالكاد استطاعت المرور بينها [1]، بعد أن لامستها قليلا من الجانب الأيمن، بعدها توقفت الرّحلة عند موضع يقال له مواكزير (muachesir)، بعدها تابعت الرّحلة باتجاه منطقة البصيرة (elpisara) فهي تقع على الضفّة اليسرى وقال إنها مدينة قديمة مهملة،وبعدها وصلوا إلى منطقة مصب نهر الخابور[2] بالفُرات، ويقدم تعريفاً له حيث إنه ينبع من ماردين، ويفرق الرحالة كاسبارو بين لون مياه نهر الخابور الذي يميل إلى الحمرة، إضافة إلى أنه صالح للشرب وصحي، وهنا نصل إلى نتيجة جغرافية أن السّبب في تلون مياه الخابور باللون الأحمر إلى كثرة الأودية التي تصب فيه وسرعة انحداره وجريانه وكثرة عمليات الحت [3]،أما مياه نهر الفُرات فإنه عكر دوماً ولذلك تكون في الغالب مياهه غير صالحة للشرب، إلاّ بعد أن يظل الماء ساكناً مدّة ساعة أو ساعتين، ويترسب الرمل والوحل منه في القعر فيكون سمك هذا الراسب زهاء البوصة أحياناً، وعلى هذا نجد السكّان، على ضفاف النّهر يستعملون أوعية كبيرة يملؤونها بماء من النّهر ثم يتركونها ساكنة إلى أن يرقد ماؤها، أما إذا أرادوا أحياناً شرب الماء قبل أن يروق فإنهم يشربونه بمناديلهم [4] .

[1]- لم يذكر بالبي الحويقة لأنه عبر من خلال الفرع الثالث من نهر الفرات المسمى (سوق الصاغة) وهو موضع ضيق أو حاجز ضيق أي أنه الفرع الثالث من النهر وهو الآن شارع الصاغة وكان يسمى شارع النهر (معلومات استنتاجية من قبل الباحث لان الرحالة لم يسلك الفرع الأساسي للنهر الفرات الذي يتميز بعرضه) .

[2] - هو الخابور الأكبر ، يبلغ طوله (320 كم) ، ويقع على خط العرض (35.08) والطول(40.26) ، أكبر روافد نهر الفرات في سورية . قديماً خابوراس(chaboras) وخابور (chaboura) ، عين في بلاد مابين النّهرين ، المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية ، ص (95) .

[3] - تقع في الزاوية المتكونة من التقاء الخابور بالفرات إذ في هذه النقطة يصب الخابور في الفرات، عن لوي جاك روسو، رحلة إلى الجزيرة العربية (1808 م)، ص (148 م) ، حيث أطلق عليها بسايرة.

[4] - رحلة ليونهارت راوولف ،مرجع سابق ، ص (116).

تصل الرّحلة بعدها إلى قلعة الرّحبة [1]، على الضفّة اليمنى لنهر الفُرات ، وتخضع إدارياً لسنجق الدَّيْر، ويوجد بالقرب منها مدينة متهدمة مايزال الناس يعيشون في بعض أحيائها تسمى الرّحبة العتيقة [2].

يتحدث بعدها الرحالة عن موقع على الضفّة اليسرى للنهر يقال له سوق السلطان (zoxosuldan)، و ثم تتجه الرحلة إلى منطقة القسارة (أي مدينة العشارة الحالية) على الضفّة اليمنى لنهر الفُرات، ويحكمها سنجق تركي، حيث أخذ عن كل سفينة شاهيين، إضافة إلى الهدايا، بعدها تحركت الرّحلة باتجاه موضع إلى الضفّة اليمنى لنهر الفُرات يقال له كورور (corur) وهي عبارة عن قلعة، بعدها تقدمت الرّحلة باتجاه جبل أطلق عليه جبل كرتون (carteron) وهو جبل الدوير الآن، ويصف الجبل جغرافياً حيث جرفت المياه القوية لنهر الفرات قاعدة جبل كرتون (شدة تيار نهر الفرات بسبب مصب نهر الخابور فيه) ويقع على الضفّة اليمنى لنهرالفُرات، والصخور ساقطة على النّهر، ومجرى نهر الفُرات قوياً، بعدها باتجاه أطلال مدينة مهملة تسمى رومي (romi) [3] أي قلعة دورا أوروبوس وبعدها باتجاه حدلجي (heidegi) التي تقع على ضفّة الفُرات اليمنى، بعدها باتجاه قلعة تسمى سورة (sora)[4] ، ويقال أن القلعة (قلعة السور) لا تبعد كثيراً عن آثار مدينة كبيرة متهدمة تقع على الضفّة اليسرى لنهر الفُرات فوق تل قليل الارتفاع مُسحت قمته، ويقول : إن أنقاضها تدل على أنها أكبر بكثير من القاهرة في مصر، وكان للمدينة 366 باباً بحسب ماسمعه من شيوخ المنطقة ولكل باب قبان ويعني بلغة أهل البلد الرجل الواقف على الميزان،وكل قبان يساعده ستة رجال، ويقول إن : المدينة كانت تتعاطى تعمل بالتجارة بشكل كبير وتدعى الآرسي (elersi)،ويصف حال المدينة بأنها مخربة كلياً، ولا يشاهد منها سوى بقايا أسوارها الضخمة وأبراجها العالية. ويصف حجم مدينة الآرسي بأن السفن سارت من الصباح حتى منتصف النهار حتى انتهت (العرسي تل الباغوز حالياً). بعد ثمانية أميال من مدينة الآرسي مرت الرّحلة بأنقاض مدينة أخرى متهدمة ومهملة تسمى عنقا (anga) ، (عنقا هي عنكا وهي جزيرة عنكا الآن) ، ويقول : إن الآثار تدل على أن المدينة لم تكن كثيرة السكّان وواسعة الأطراف، لكنها تمتلك عدداً كبيراً من النواعير، بعضها عند النّهر وبعضها الآخر في الداخل، ويقدر الرحّالة عدد النواعير بعشرة على النّهر وعشرة في الداخل ويعطي تعليلاً جغرافياً لتغير مجرى النّهر بقوله : ومن هنا يستنتج الباحث أن مجرى نهر الفُرات كان يسير في مجرى يختلف عما كان عليه في الماضي، فتوسع أكثر ممّا كان في الأزمنة الغابرة عندما كانت تلك المدن مأهولة بالسكّان.

يشير الرحّالة ألو موسيل ويؤكد ذلك بقوله : غير أن الفُرات قطعها في بعض المواضع . وبالقرب من الشاطئ الأيمن والأيسر توجد جزر كبيرة وصغيرة، ممّا يدل على أن الفُرات قد غير مجراه خلال القرون القلائل الأخيرة ، ومايزال مجراه القديم باقياً في السّهل الفيضي إلى الشرق من قاع النّهر، ويمتدّ المجرى على الضفّة اليمنى إلى الجنوب الشرقي ، بحيث يروي مزارع عدد كبير من القرى، ولاتزال آثارها ظاهرة بين الصالحية والبيضة (موسيل ،بدون تاريخ).

---

[1] - الرّحالة البندقي كاسبارو بالبي (GasparoBalbi) يقول في عام (1579 م) وجد بقايا من مدينة قديمة حيث يوجد عدد قليل من السكّان ينتشرون بين الرّكام، لقد كانت في وقت ما أسقفية مسيحية، الا أنها في الوقت الحالي مهجورة تماماً ،ينظر إلى رحالة هنري سواينسونكاوير ، رحلة عبر الجزيرة الفراتية عام(1893م)، مرجع سابق ، ص (139) .

[2] - الرحالة هنري سواينسونكاوير ، رحلة عبر الجزيرة الفراتية عام (1893م)، يرجع العرب تاريخ هذا البناء بالإضافة إلى آثار أخرى على ضفاف الفُرات الأسفل ، إلى النّمرود . بينما يحدد أينسوورث (ainsworth) الموقع بأنه رحبوت على النّهر التي ورد ذكرها في سفر التكوين 36 : 37 ، ص (138) .

[3]- رومي : هي قلعة دورا أوروبوس : تقع على الضفة اليمنى لنهر الفرات ، فوق هضبة صخرية تشرف على مجرى نهر الفرات بارتفاع حوالي (50 م).

[4]- سورة : وتسمي اليوم آثار مدينة الصالحية .

الاختلافات الحضارية بين وادي الفُرات في سورية والعراق عام(1579م)

الجغرافية الزراعية والحيوانية : يصف الرحّالة المنطقة الجغرافيّة في وادي الفُرات في سورية بأن معظمها مقفر، أو أحراش أو غابات أو جبال لا يأوي إليها سوى بعض قُطُّاع الطرق، ماعدا البيرجيك، الرّقة، الدَّيْر، قلعة باليس ، الرّحبة ، الرّحبة العتيقة، عشارة، الكرخي، الميزتانا، والقرى، وقلعة عانة، فهذه الأماكن مأهولة وعامرة، لم يذكر الرحالة في القسم السوري إلا المناطق التي دفع فيها رسوماً كمركية .

نستنتج من ذلك نتيجتين الأولى: أن الوضع البشري كان شبه معدوم في وادي الفُرات فيما عدا قطّاع الطرق، إضافة إلى ضعف الوضع الأمني وقلته فيما عدا مراكز المدن التي ذكرها الرحّالة أعلاه. إن الأراضي الشاسعة التي مر بها كاسباروا في سورية لا حياة فيها .

يقول الدكتور ليونهارت راوولف في أثناء وجودنا في البيرة تزودنا بكافّة المؤن، ذلك لأنه كان علينا أن نقطع بواسطة النّهر طريقاً طويلة عبر الصحارى والأماكن العديدة غير المأهولة ممّا لايمكن الحصول فيها على الطعام، إذا لايوجد على طول نهر الفرات محطات يمكن التزود منها بالمؤن [1].

لم يذكر الرحّالة خلال مروره في سورية أنه شاهد أو ذكر أي نوع من الأشجار ، فيما نرى أنه في العراق يذكر في كل مكان أنه شاهد عدداً كبيراً البرتقال والليمون والنّخيل والأترج وسائر الأشجار المثمرة .

يتحدث الرحّالة عن أشجار النّخيل[2] التي شاهدها في كل موقع من المواقع التي تحدث عنها ومر بها في العراق ، فقد قال كانت ضفاف النّهر عامرة بالنّخيل أشبه ماتكون بالغابات فيما نلاحظ أن الحديث عن النّخيل كان معدوماً على وادي الفُرات السوري ، ويذكر الرحّالة الهولندي الدكتور ليونهارت راوولف أشجار النّخيل التي يقول : لم أرَ لها شبيهاً بما شاهدته من أمثالها في سفرتي . يذكر الهولندي أنه شاهد في مدينة الدَّيْر أشجار النّخيل بكثرة إضافة إلى البرتقال والليمون وغيرها[3].

أشار الرحّالة عند حديثه عن العراق أن السّهل كان مليئاً بالأشجار البرية ، في حين نلاحظ أنه أغفل موضوع التحدث عن الأشجار البرية في السّهل الفُراتي في سورية .

تحدث عن وجود حيوانات بريّة كثيرة في السّهل العراقي الفُراتي كالوعول والخنازير البرية والدببة والأسود ، فيما نلاحظ أن الرحّالة لم يذكر شيئاً عن هذه الأنواع من الحيوانات عند مروره بالسّهل الفُراتي في سورية .

يعدد الرحّالة أنواع الطيور التي شاهدها على جانبي نهر الفُرات ، وأهمها طيور الكركي وبنات الماء [4] ، والبلوش ، والنوارس ، والبلقشية وغيرها ، فيما أغفل الحديث عن الطيور في القسم السوري من نهر الفُرات . بينما الدكتور رووولوف الهولندي يعدد أنواع الطيور التي شاهدها بكثرة عند حلبية وزلبية أهمهما : مالك الحزين ، العقاب ، صقور البحر أي أن الرحالة كاسبارو بالبي لم يكن وصفه شاملاً في القسم السوري .

---

[1] راوولف ، ليونهارت ، 2008 م ، رحلة الدكتور ليونهارت راوولف ، الطبعة الأولى ، الدار العربية للموسوعات ، بيروت ، ص (120)

[2]- الرحالة هنري سواينسونكاوير، رحلة عبر الجزيرة الفراتية عام (1893م) ، أشار في رحلته إلى أن التمور تأتي إلى دير الزور من بغداد ص 126.

[3] - راوولف ، ليونهارت ، 2008 م ، رحلة الدكتور ليونهارت راوولف ،مرجع سابق ، ص (164)

[4] - ويقال له البيوضي وهو نوع من مالك الحزين شديد البياض له جمة مرغوب بها ، أمين معلوف ، معجم الحيوان ، ص(96) .

ويتابع الرحالة كاسبارو بالبي حديثه بالقول: عند دخول مدينة القائم العراقية شاهدت برجاً، وجهازاً غريباً مكوناً من ثلاث دوائر كان يسحب الماء من نهر الفُرات ويصبه في ساقية من أجل سقي الحقول .

نستنتج من كلام الرحّالة : أن الزّراعة كانت قائمة في الموقع القريبة من حدود سورية الحاليّة، وأنّ النواعير كانت منتشرة والأراضي الزراعية مستثمرة، وفي موقع أخر من الفُرات يذكر الرحّالة أنه شاهد نواعير متقابلة على الضفّة اليمنى واليسرى من نهر الفُرات، وهذه الظواهر لم يذكر الرحّالة أي منها عند مروره بنهر الفُرات من حلب إلى القائم، حتى النواعير التي شاهدها في منطقة العنقا (العنكا) فقد أشار إلى أنها عبارة عن آثار ولم يصف أي نشاط زراعي للسكان.

ويتحدث الرحالة في الصفحة (75) عن الكرود بقوله : يسقي الناس حقولهم بطرق مختلفة عما يفعل الآخرون، فهم يسحبون الماء من النّهر بقِرب مصنوعة من جلود الماعز أو جلود الحيوانات الأخرى المتوفرة لديهم، مع العلم أنهم يمتلكون حيوانات كثيرة، ويسحبون القرب إلى الأعلى بواسطة بكرة تدور بقوة الثيران، فعندما تنزل القرب نحو الماء تسير الثيران المربوطة بحبال إلى نقطة معينة حتى ترتفع القربة إلى البكرة حيث توجد ساقية فينسكب الماء فيها، وحينئذ يوجهون الماء إلى حيث يحتاجون [1].

نستنتج من كلام الرحّالة : أن النشاط الزراعي على ضفتي الفُرات السوري كان معدوماً، فالرحّالة لم يشر أو يتحدث عن أيّ نشاط زراعي أو وسائل ري على طول نهر الفُرات السوري. بينما الهولندي الدكتور ليونهارت بعد اجتيازه حلبية وزلبية يقول أنه شاهد مساحات شاسعة من الأرض المزروعة وفيها من السكّان العرب أكثر ممّا شاهدناه قبل، وقد نزل ربان سفينتنا إلى إحدى القرى ليشتري لنا بعض الأطعمة لرحلتنا المقبلة حيث اعتاد السكّان أن يجلبوا إلينا اللحم والبطيخ ليبيعه لنا، ويضيف في موقع آخر من رحلته بقوله : إننا لم نصدق ماشاهدناه في مدينة عانة بعد أن أقبلنا من تلك البراري القاحلة التي كانت تمتدّ من الدَّيْر إلى مثل هذه الأراضي المزروعة، كما تحدث في الصفحة (113) عن القمح وحجمه الكبير مقارنة بالحجم الاعتيادي، إضافة إلى زراعة الأرز. ويصف الرحّالة سبستياني الذي زار مناطق واسعة من الإمبراطورية العثمانية عام (1666 م) حال الإمبراطورية بقوله، إن معظم أراضي الدولة العثمانية غير مأهولة والسكّان في تراجع مستمر ومعظم أراضيها غير مزروعة [2] .

خلال تجوله في وادي الفُرات في سورية باستثناء المراكز الإدارية العثمانية الرئيسة لم يتحدث الرّحالة عن مناطق سكنية ، فيما نرى أنه يذكر أنه شاهد قصراً فخماً يسمى كابيل جلبي (capilchelbi)في العراق، ثم بعدها يتحدث عن بيوت قائمة ودور كثيرة، ويشير في موقع آخر من رحلته إلى أنه شاهد بيوتاً عديدة متجاورة على هيئة المدينة تسمى قصوراً (cozzur) وموقعها بالحقيقة جميل جداً .

البيوت والأكواخ : ذكر الرحّالة أنه شاهد خلال ترحاله في العراق عدداً من الأكواخ [3] التي يسكنها الناس، أما في سورية فلم يتحدث عن أي أكواخ شاهدها خلال مروره، فيما يذكر الهولندي أنه شاهد بعد بالس أكواخاً للأعراب متناثرة هنا وهناك، كان كل واحد منها يستند إلى أربعة أعمدة ويغطى بأوراق الشجر، وتحدث في

1- يوم الاثنين رأينا عند ضفة النّهر مساحات من الأرض مزروعة بالدخن في الأكثر لأن الأعراب يفضلونه على الشعير والحنطة، (رحلة ديالافاليه إلى العراق في مطلع القرن السابع ،مرجع سابق (ص 30).

2 - رحلة سبستياني إلى العراق عام 1666 م ، ترجمة د. بطرس حداد ، الدار العربية للموسوعات ، ط1 ، 2006 م ، بيروت ، ص(78).

3 -يقصد هنا بالأكواخ هي السيابيط جمع كلمة سيباط (ألو موسيل ، رحلة في الفرات الأوسط ،مرجع سابق ، ص 125) .

موقع آخر بعد اجتيازه الرّقة بقوله فأمضينا عدّة أيام وقطعنا مسافات بعيدة ونحن لانرى سوى أكواخ قليلة من القش انتشرت هنا وهناك يسكنها الأعراب مع عوائلهم ليحموا بها أنفسهم من الحر والمطر والندى الذي يكون في هذه الأصقاع أكثر وقعاً .

ذكر الرحّالة أن سكان هيت يشيدون بيوتهم من أغصان الأشجار ثم يطلونها بطبقة سميكة من القير(النفط الخام) ، وكذلك السفن تصنع من سعف النّخيل ومن القير، كما تحدث عن بناء أكواخ مشيدة بأغصان الشجر ومطلية من الخارج بالطّين، بينما مثل هذه البيوت لم تكن موجودة في سورية أو لم يذكرها الرحّالة في أثناء مروره بسورية.

الأسماء الجغرافية :كان هناك تشابه في الأسماء الجغرافية بين حصن الدَّيْر (eldir) الذي شاهده في العراق ويقع على الضفّة اليسرى لنهر الفُرات، ومدينة الدَّيْر في سورية، إضافة إلى موضع سماه رقة الميل في العراق ، والرّقة الموجودة في سورية .

النشاط الديني : خلال رحلته في سورية لم يذكر الرحّالة أي نشاط ديني في سورية، أو قبور أولياء، أما في العراق فيذكر أنه شاهد قبراً لأحد الأولياء الذي يلقى من السكّان الإكرام، ويذكر أن الملاحين وضعوا في المزار رغيفاً من الخبز عن كل واحد منهم، إذ قالوا : أن قوارب محملة بالقمح مرت من هناك فلم تقدم بحارتها شيئاً للمزار فغرقت حالاً في ذلك المكان . كما لم يذكر الرحّالة أي جوامع شاهدها خلال مسيرته في وادي الفُرات السوري [1]، بينما نرى أنه يتحدث عن الكثير من الجوامع التي شاهدها في طريقة في العراق [2].

الجزر النهرية : خلال رحلته في سورية لم يتحدث الرحّالة أنه شاهد أي جزيرة نهرية في نهر الفُرات بينما نلاحظ في العراق يتحدث عن مروره بجزيرة صغيرة عامرة بالنّخيل والبرتقال، وبعد هذه الجزيرة صادفوا جزيرة أخرى مسورة ومزروعة وهناك عدد من السكّان جالسين للتسلية . يقودنا هذا إلى تساؤل: هل كانت الجزر النّهرية معدومة في سورية أو قليلة حتى أهمل ذكرها الرحّالة[3]، أو أن شدة جريان النّهر في سورية لم تكن تسمح بوجود جزر نهرية، ويضيف الرحّالة في القسم العراقي من نهر الفرات إننا رأينا في النّهر جزراً عديدة، كانت إحداهما كبيرة نسبياً لأنها قسمت النّهر إلى فرعين وتسمى الخليجي وليس فيها سوى الأشجار البرية . في حيث أن الرحّالة خلال مروره بسورية لم يذكر ظاهرة وجود جزر نهرية قسمت نهر الفُرات إلى قسمين . نستنتج أنّ الرحّالة أهمل ذكر الجزر النّهرية (الحويقة) في القسم السوري من وادي الفُرات.

اللصوص وقطاع الطرق : يقدم الرحّالة وصفاً لسلوك قُطّاع الطرق واللصوص في وادي الفُرات في سورية والعراق فيقول : إنهم لايقتلون بل يكتفون بالاستحواذ على المواد ثم يفرون، ويذكر أن استعمال البنادق كان يدخل الفزع في قلوبهم . وكان البدو يختبئون خلف الأعشاب والأدغال الموجودة على ضفتي النّهر.

ذكر الرحالة في أكثر من موقع في العراق أن السكّان كانوا خليطاً من العرب والأتراك واليهود، أما في سورية فإنه لم يذكر شيئاً عن التنوع السكّاني فيها.وتحدث عن بعض المناطق العراقية حيث قال أن سكانها يتكلمون

[1] - أما الرحالة ديالافاليه يقول نزلنا عند بلدة تسمى مسجد علي وجدير بالذكر أن أماكن عديدة في تلك المنطقة تحمل هذا الاسم لأن القوم يعتزون بإطلاق هذه الاسم تيمنا بأمير المؤمنين الخليفة علي ويروى (نقلاً عن الفرس) أن الخليفة علي مر في هذه النواحي عندما خرج للقتال فترك قسماً من جماعته في بعض تلك الأماكن، ولذا فقد أطلقوا اسمه على أكثر من مكان في تلك المناطق تخليداً لذكرى مروره بها وإقامته الصلاة فيها .

[2] - يستنتج الباحث من خلال رحلة كاسبارو أنه لم يتحدث عن كنائس شاهدها أو مر بها من حلب إلى بغداد .

[3] - وجدير بالذكر هنا أن كل مرة نحط راحلتنا عند الماء كانت تتقاطر علينا جماعات من البدو رجالاً ونساء يعبرون النّهر من الجهة الثانية أو من الجزر العديدة المأهولة المنتشرة في النّهر، ديالافاليه ، ص(30) .

ثلاث لغات هي العربيّة والتركيّة والفارسيّة، بينما نلاحظ أنه في القسم السوري من الرحلة كانت اللغة العربيّة هي اللغة المحكية بين السكان، أما اللغة التركيّة فقد اقتصرت على الموظفين والجنود الأتراك[1].

وقد أشار الرحّالة في منطقة (جحر علي) إلى وجود خليط من السكّان ، كما يوجد عدد غير قليل من شاربي الكحول المدمنين، إذ إنهم يستهلكون في تلك البلدة كمية كبيرة منه، ويقول الرّحالة إنهم قدموا للسنجق التركي في مدينة القسارة (العشارة) مجموعة هدايا وجرة خمر .

تعرضت السفن إلى التعسف من قبل السناجق وخاصّة في الرّقة، فقد فرض على السفن (5 %) من قيمتها بينما المتعارف عليه تأدية (18) شاهياً عن كل سفينة، وهذا كله حتى لا يدفع ثمن الأقمشة التي اغتصبها.وتمّ تقديم الهدايا في دير الزور ولكن المعاملة اختلفت بين سنجق وآخر حسب المزاجية في سورية ، ولم تختلف المعاملة في العراق فيشير الرحّالة في العراق إلى أن الخواجا سليمان قد أرسل لهم ساعياً لينبههم بأن تسرع السفن بالرحيل لأن الصوباشي[2] سيأتي ويطلب أربعة أذرع من القماش الأحمر ، وغير ذلك مما توحيه الوقاحة لذلك أسرعت السفن بالرحيل .

الرخام الأبيض: يتحدث عن الرخام الذي شاهده في العراق وقد وصفه بأنه من أجود أنواع الرخام الأبيض، و يتحدث عن مشاهداته للمواقع التي يستخرج منها الرخام الأبيض والذي يستخدم في صناعة البيوت العربية ، أما في سورية فلم يتحدث عن مثل هذه المشاهدات، إضافة إلى مشاهدتهم جبل من الرخام .

التلوث النهري:تحدث الرحّالة عن عملية تلوث مياه نهر الفُرات بالقير(النفط الخام أو الزفت) بينما لم يذكر أي عمليات تلوث نفطي في القسم السوري،إضافة إلى أنه أشار إلى أن الفيضانات التي تحدث في نهر الفُرات تؤدي إلى جرف هذه القير إلى الخليج العربي،ويمكن القول أن كاسبارو هو أول من أشار إلى عملية التلوث النفطي لمياه الأنهار.

صيد الأسماك : يشير الرحّالة إلى حرفة الصيد النّهري، ومن بين الأسماك هناك نوع يسمى السمك الفراتي، ويصفه بأنه لذيذ جداً ، وأفضل أنواع الأسماك قاطبة، ويصطادون منه كميات كبيرة، فيعتاش منه الملاحون والفلاحون.فيما نلاحظ أنه لم يشر إلى حرفة صيد الأسماك في القسم السوري .

المنارات: كان في العراق على ضفّة النّهر عدد من المنارات أثناء الرحلة ذكرها الرحالة، بينما نلاحظ أنه أغفل ذكر المنارات عند الحديث عن سورية.

الجداول والأودية النهرية :خلال رحلته في سورية وكونها حدثت في فصل الشّتاء لم يتحدث الرحّالة عن أي جداول أو أودية نهرية تصب في نهر الفُرات[3]، فيما نلاحظ أنه تحدث عن الجدوال النّهرية في العراق .

وسائل التدفئة :كثيراً ما تحدث الرحّالة خلال رحلته عن مشاهدة عمليات الاحتطاب التي يقوم بها السكّان في العراق في الأحراش الكثيفة، فيما نلاحظ أنه أغفل الحديث عن الأحراش والاحتطاب في القسم السوري من نهر الفُرات، ويذكر الدكتور ليونهارت راوولف عملية الاحتطاب بقوله : (وفي الوقت ذاته انحدرت إلينا بعض

---

[1] - الرحالة هنري سواينسونكاوير ، رحلة عبر الجزيرة الفراتية عام (م1893)، ذكر أن معظم سكان الدَّيْر من العرب ،ص(127).

[2] - صوباشي أو سو – باشى لفظة تركية متكونة من مقطعين، تعني قائد الجيش كان يضطلع بمهام عديدة في الولايات منها تأمين الأمن والنظام في منطقة نفوذ البكلربكي وأمير السنجق، أي أنه بمثابة رئيس شرطة،فاضل بيات ، الدولة العثمانية في المجال العربي مرجع سابق ، ص(65).

[3] - يشير ديالافاليه أن نهر الفرات كان غزيراً وعريضاً ص (39) .

النساء الفقيرات من ربوة ، ليجمعن روث الإبل بغية استعماله وقوداً بدلاً من الحطب الذي كنا بأمس الحاجة إليه.[1].

الفطر أو الكمأة : تحدث الرحّالة عن الأراضي الواقعة بين الفلوجة وبغداد ، فذكر أنها تنتج أجود أنواع الفطر، التي بإمكان الإنسان أن يتذوقها ، وهي بكميات كبيرة ، ولجودتها يستطيع الإنسان أن يتناولها نيئة كما يفعل هؤلاء الناس .

الجسور النّهرية :أشار الرّحالة إلى وجود جسر نهري قائم على الفُرات قبل وصولهم إلى بغداد، و تحدث في الصفحة (85) من رحلته ، ومن أجل الذهاب من دار الرقيق إلى بغداد لابد من عبور النّهر على جسر من الخشب المثبت فوق سبعة وثلاثين قارباً(جسارية)مصنوعاً على شاكلة قواربنا التي نسميها (بور كيللي) أي العوامات التي تنقل الطّين ، وقوارب الجسر هذه مربوطة إلى بعضها ، أما خلال مروره في القسم السوري فلم نرَ أي ظاهرة للجسور النّهرية . ويضيف الهولندي ذلك لأننا منذ أن قدمنا من البيره إلى هناك ، لم نرَ على النّهر حتى ولا جسراً واحداً.

التحصينات العسكرية : خلال مروره في وادي الفُرات السورية لم يتحدث الرحّالة عن أي أمور عسكرية شاهدها أو تحصينات أو مدافع ، في حين نرى عند حديثه عن قلعه بغداد في الصفحة (93) من رحلته ، فيها عدد من المدافع المسمى صقر وفي القلعة جنود .

الحمامات : في المدن السورية الواقعة على نهر الفُرات ، لم يتحدث عن الحمامات ، أما في مدينة بغداد فيذكر أن عدد الحمامات يقارب ستين حماماً ، ويذكر أنها مطلية من الداخل بالقير بدلاً من الجص (ص 94 من الرحلة)، ولم يتحدث الرحّالة عن أي خانات شاهدها في طريقه خلال مروره بالقسم السوري أو العراقي خلال رحلته .

الآثار: وصف الآثار في العراق وسورية بأنها متهدمة، حيث يقول : بالرغم من أننا نعرف كم كانت عظيمة أبنية بابل، مهما يكن فهذا تأثير الزمن الذي يخرب كل شيئ [2] . ولم يستخدم البدو الأماكن الأثرية للسكن البشري، ولكن استخدموها للاختباء ليهاجموا من خلالها القوافل والمسافرين، ولما كان البدو يعتقدون أن الأرواح الشريرة والهوام[3] تعيش فيها فقد تركت متهدمة وغير مأهولة، ويضيف وكيف تحولت قصورها وبساتينها إلى خرائب وقفار إلى أن الرعاة كانوا يخشون أن ينصبوا خيامهم هناك والسكن فيها، ويربط كثير من البدو في مختلف المناطق الجغرافيّة التي تتواجد فيها الآثار بين الأماكن الأثرية وتواجد الجن ،فالخرافات مسيطرة على أفكارهم، ويعزو كثير منهم أن كلّ الآثار المذهلة المتبقية من سالف العهود والأزمان في بلادهم إلى (الجان ابن الجان) وخدمه من الجن ، إذ يستحيل أن تكون أيادي بشرية قد شيدت هذه الآثار[4] .

خلال تجواله في القسم السوري عبر نهر الفرات لم يتحدث الرحالة أنه شاهد خياماً للبدو أو قطعاناً للأغنام أو خياماً متناثرة أو رعاة شاهدهم يرعون أغنامهم فيما نلاحظ أنه في القسم العراقي من الرحلة تحدث عن الرعاة والأغنام والخيام المتناثرة

[1] - راوولف ، ليونهارت ، 2008 م ، رحلة الدكتور ليونهارت راوولف ،مرجع سابق ، ص (120) .
[2] - إنّ البدو بشكل عام يهابون الأماكن الأثرية ولا يقتربون منها لاعتقادهم بوجود هاروت وماروت فيها وهذان في اعتقادهم ملاكان أرسلهما الله لتفقد الأرض واستطلاع أخبار البشر (رحلة ديلافاليه ، ص55).
[3] - يقصد بها الحيوانات المتوحشة .
[4] - إدوارد وليم لاين ، عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، 1999 م ، ص (231).

صناعة القوارب :تحدث عن صناعة القوارب في منطقتين، منطقة بيره جيك، ومنطقة الفلوجة ص (79) ، تباع السفن في هيت أو الفلوجة مع فارق في الأسعار بين البيع والشراء ، فثمن المركب في بيره جيك خمس وعشرين دوكاة (دوقية) ويباع في الفلوجة بأربع أو خمس دوكات .

تعتمد صناعة السفن في بغداد على أخشاب بيره جيك السورية (قبل أن تضم إلى تركيا) ، حيث يقول كاسبارو يجب أن تعرف أن أهل بغداد لافتقارهم إلى الخشب فإنهم يصنعون السفن من ألواح المراكب القادمة من بيره جيك ، لأن هذه المراكب عندما تصل إلى الفلوجة تفكك أوصالها وتباع .

أمّا حركة القوارب فهي من الشمال إلى الجنوب، وليس العكس بسبب كثرة منحدرات المياه وسرعتها فهي تعيق تقدم السفن، لذلك فإن السفن التي يتمّ شراؤها من مدينة بيره جيك وتصل إلى مدينة بغداد يتم بيعها إمّا في مدينة هيت أو في مدينة الفلوجة، إضافة إلى فرق شراء القوارب وبيعها بين مدينة بيره جيك التي توجد فيها مصانع القوارب و التي تبلغ (خمسة وعشرين دوكا)، بينما تباع في مدينة الفلوجة بأربع دوكات[1] .

الملاحة : يقدم كاسبارو بالبي مقارنة للملاحة بين نهري دجلة والفرات ففي الصفحة (106) من رحلته يقول إن نهر دجلة لاخطر فيه للارتطام باليابسة أو المضائق أو بجذوع الأشجار كما يحدث في نهر الفرات ، ثم يضيف في الصفحة (112) من رحلته وفي تلك الأثناء دخلنا في عرض النّهر الفائق الجمال إذ توسعت جوانبه في تلك المنطقة حتى أصبح شبيهاً بنهر النيل، وكانت المناطق على جانبيه مأهولة بالسكان، فالبيوت كثيرة والأرض خضراء ، نستخلص من العرض السابق أن الملاحة في نهر الفرات تعاني من صعوبات كثيرة منها كثرة التعرجات أو المنعطفات النهرية ، وكذلك ونتيجة لترسب كميات كبيرة من الطّمي في النهر فإن المانع الوحلي (الطين) يغير شكله باستمرار، وقد تضطر السفن الكبيرة أو ذات الحمولة المرتفعة لتنزيل جزء من حمولتها على قوارب صغيرة ثم تقوم بتحميلها مرة أخرى بعد عبور الحاجز الوحلي .

ـ المصاريف من حلب إلى بغداد

كانت المصاريف التي دفعها الرحّالة متفاوتة، فيتحدث أنه دفع للجمال من حلب إلى بيره جيك (60 مؤيدي) عن الحمل الواحد، مع العلم أن المؤيدي[2] القرش يساوي أربعة فلوس في نقد البندقية، أما أحمال البغال فكانت (45 مؤيدي للحل الواحد)، مصاريف المكس في بيره جيك (10 مؤيدي للحمل الواحد ، ومنحة للأمين (400 مؤيدي) ، أما الإتاوة التي انتزعها القاضي فكانت (200 مؤيدي ، ثمن أربعة صحون زبيب وعشرين قطعة صابون 35 مؤيدي) ، للقوارب عدد 30 على 35 ، بـ (60) دوكاة (2400 مؤيدي) .

أما المكس في الرّقة (5 مؤيدي عن الحمل ، ثمن 3 صحون زبيب ، وصابون عدد 25 قطعة بقيمة 25 مؤيدي) ، أما حقوق الملك أبو ريشة فبلغت (20) دوكاة أي (800) مؤيدي ، أما المكس في الدَّيْر فدفع (5) دوكاة ،أي (230) مؤيدي ثمن أربعة صحون زبيب وصابون عدد (20 أي 35 مؤيدي) فيما نلاحظ انخفاض في ثمن قيمة المكس في العشارة عن بقية المناطق حيث بلغت (10) مؤيدي ، ثمن صحني زبيب وصابون عدد (10)أي (17) مؤيدي.

---

1 - الدوكاة (docat)ضرب من النقود، قال القلقشندى في صبح الأعشى (3 : 441) في كلامه على الدينار الفرنسي أنه (يعبر عنه أيضاً بالدوكات) ويقول الأب أنستاس ماري الكرملي (النقود العربية وعلم النميات ، ص 111 الحاشية 4) أن قيمة الدوكات تختلف بين عشر فرنكات واثني عشر فرنكا، فأول ماضربت الدوكاة (لا الدوكات) في البندقية من أعمال إيطاليا، في المائة الثالثة عشرة للميلاد (كاسبارو بالبي ، ص112) .

2- المؤيدي : نقد من الفضة ، ويحمل نقشاً تركياً على وجهيه .

المصاريف في العراق : للمكس في عانة (10) عن كل حمل، إضافة إلى ثمن أربعة صحون زبيب وصابون عدد (20 أي 35) مؤيدي ، أما في حديثة فدفع (10) عن كل قارب ثمن صحني زبيب وصابون عدد (10) أي (17) مؤيدي ، أما المكس في هيت فدفع (10) عن كل حمل ، إضافة إلى ثمن أربعة صحون زبيب وصابون عدد (20) قطعة بقيمة (35) مؤيدي ، أما ثمن الهدايا في الفلوجة فإنها بلغت (30) مؤيدي ، أما أجرة الجمال من الفلوجة إلى بغداد فإنها بلغت (30) مؤيدي للحمل الواحد .

يقول كاسبارو إن المكس في المدن يدفع أكان عند الوصول إليها أو حين مغادرتها، كلها بنسبة (5 %) لكنهم يحاولون دائماً التقدير بسعر أعلى من ثمن البضائع الحقيقي .

كما كان هناك اختلاف في قيمة الضرائب وعدم وحدتها بين السناجق الإداريّة في كلاً من سورية والعراق وهذا يعني أن التنظيمات الإداريّة لم تكون موحدة في موضوع استيفاء الضرائب من السفن ، أو قيام الرحّالة بدفعها لمرة واحدة .

تعاملات الجهات الإدارية مع الرحالة : أشار الرحّالة إلى معاملة الجهات الإدارية التابعة للدولة العثمانية، ويشير الرحّالة سبستياني إلى أن الجنود العثمانيين الذين كانوا على جسر بغداد كانت معاملتهم سيئة ومسلحين بهاروات غليظة ، فقد اعتدى أحدهم على أراكيل المسكين فضربه وجر شعر لحيته ، وسبب كل ذلك أن بغال أراكيل كانت خمسة، لكن الجندي أصر على اعتبارها ثمانية . وأرغمه على دفع الرسوم عن ثمانية أحمال.

تعرض السفن إلى تعسف من قبل السناجق ولاسيّما في الرّقة، فقد فُرض على السفن (5 %) من قيمتها بينما المتعارف عليه تأدية (18) شاهيا عن كل سفينة، وهذا كله حتى لايدفع الوالي ثمن الأقمشة التي اغتصبها ،وعند تقديم الهدايا من قبل الرحالة في دير الزور فإن المعاملة اختلفت بين سنجق وأخر، ويذكر الرحالة أنه دفع للطواف والبواب والكاتب ست مؤيدات عن الرأس أو البالة أو الحزمة، ويكون الدفع نقداً، كما أعطى أمين المال ثلاثين شاهينا رشوة، فإذا امتنع أحدهم عن دفع هذه الدراهم، ستحدث له مفاجأة غير سارة عند استعداد المركب للإقلاع إذ سيهبط عليه الأمين بحجة التفتيش عن العملات التي لايجوز إخراجها من البلد، وبهذه الحجة يعمد إلى فتح الأحمال من جديد فيقلب عاليها سافلها والعياذ بالله.

- **الجغرافية الطبيعية لنهر الفرات**

اختلفت طبيعة مجرى نهر الفرات حسب المواقع الجغرافية التي مر بها الرحلة بين قاع رملي وأخر طيني وثالث صخري وفيما يلي يقدم الباحث عرضاً حسب ماذكره الرحالة عن طبيعة مجرى نهرا لفرات وخاصة في القسم السوريّ:
موقع مكسارة : على الضفة اليسرى لنهر الفرات، حيث ارتطمت السفن بقاع النّهر، هذا يعني أن عمق النّهر كان ضحلاً، إضافة إلى أنه صخري، كما أن قاع النّهر كان يوجد فيه جذوع أشجار كبيرة مخفية تحت الماء بسبب كثافة الغطاء الشجري .
تل ويري : انغرست السفن في الرمال على الضفة اليسرى من نهر الفرات .
بليس : على الضفة اليسرى لنهر الفرات، ذكر الرحالة أنه في هذا الموضع تكثر القيعان الرملية الضحلة، والموانع الصخرية وجذوع الأشجار المغمورة في المياه .
موقع أمان: ارتطمت السفن بالرمال في محل مليء بجذوع الأشجار المخفية تحت الماء.
منطقة الطريف: كان قاع النّهر صخرياً بسبب الصخور المنهارة من الجبل المحاذي لنهر الفرات أي جبل الطرف الطويل.
مدينة الدَّيْر : كانت تسمى قديماً ميناء السلسة، ويعلل التسمية بأنها نتيجة الصخور العظيمة التي مروا بها وتقطع النّهر في أكثر من موضع وهي أشبه ماتكون بالحواجز، ويذكر أن هذه الحواجز قديمة، ويقول أنه رأى في

مواضع عديدة من تلك الصخور مسامير مثبتة فيها، لها رؤوس متجهة عكس مجرى الماء وبعض تلك المسامير كانت كبيرة جداً، وهي مغمورة تحت الماء بمقدار ذراعين، وعند سؤاله سكان المنطقة عن سّبب وجود مسامير مثبته في الصخور قيل لهُ أنه من عمل الأقدمين في حال داهمهم الأعداء في سفن منحدرة مع مجرى النّهر تصطدم بهذه الحواجز المخيفة لإغراقها ، أي أن القاع كان صخرياً عند مدخل مدينة دير الزور .
جبل كرتون (carteron): يقع على الضفّة اليمنى لنهر الفُرات، وقد جرفت المياه القوية قاعدة الجبل، والصخور ساقطة في قاع النّهر، أي أن القاع صخري بسبب سقوط الصخور من الجبل وقيام النهر بجرف قاعدته.
رومي (romi) : يعطي الرحالة تعليلاً جغرافيا لتغير مجرى نهر الفرات عند منطقة رمي ، بقوله، ومن هذا نستنتج أن مجرى نهر الفُرات كان يسير في مجرى يختلف عما كان عليه في الماضي، فتوسع أكثر مما كان عليه في الأزمنة الغابرة عندما كانت تلك المدن مأهولة بالسكّان .
يمكن أن نقدم تعليلاً عن وجود الكتل الصخرية في مجرى الفرات بثلاثة آراء أو بثلاث نظريات:

- وجود سد قديم في بعض المناطق .
- وجود جدار اصطناعي يعود إلى آثار في تلك المنطقة .
- بقايا جسر حجري بني في هذه المنطقة حسب التقاليد العربية على كتلة من الصخور الطبيعية الموجودة في النهر.

يتحدث الرحالة في العراق عن الكثير من المنحدرات والمضائق التي اعترضت طرق السفن، فمثلاّ في العراق يقول أنه في نهار واحد مررنا بثمانية وأربعين مضيقاً أو منحدر مياه في النّهر، بينما لم نرَ مثل هذا الحديث عن طبيعة النّهر فيما عدا موقع حلبية وزلبية (الخانوقية) .
أما طبيعة النهر وعلاقته بعودة السفن فبسبب سرعة جريان نهر الفرات وكثرة المنحدرات فيه لاتستطيع السفن العودة في الاتجاه المعاكس، حيث يضطر الملاحون إلى بيع السفن إما في هيت أو الفلوجة .

-السطوة العشائرية

ترجع سيطرة الموالي على وادي الفرات في فترة استيلاء العثمانيين على سورية فقد وقف الموالي إلى جانب العثمانيين في حين بقيت عشائر الفضل في ولائها للمماليك (سادة البلد القدماء).

وهكذا تحولت أراضي حماة ووادي الفرات إلى ما وراء عانة مواقع ارتكاز رئيسة للموالي، الذين وصلوا شمالاً إلى بيره جيك وحران وشرقاً إلى الخابور، وهكذا خضع أنصاف البدو الرحل للموالي، أسس أبو ريشة (أمير الموالي) دولة في وادي الفرات امتدت بين قلعة جعبر وحديثة واتخذت من مدينة عانة عاصمة لها كما ضمت قلعة نجم، ومواقع البغيلية إلى الأعلى من الدَّيْر، والرحبة والعشارة، في حين بقيت الرقة والدَّيْر وقلعة عانة بيد الأتراك[1]. وقد تحدث رحالة أوربيون في تلك الفترة، أولهم سيزار فريدريجي (1563 م)، وآخرهم ترافينيه (1638) عن سلطة الأبوريشة، أمراء عانة، الذين يسمونهم ملوك العرب وقد أطلق الرحالة كاسبارو بالبي على الأمير أبو ريشة أمير العرب .ذكر الرحّالة أن أبو ريشة يسيطر على معظم مناطق البادية في العراق وسورية ويسمونه سيد العرب أو الزعيم أو ملك العرب والبادية ، حيث أن سلطته امتدت إلى الفلوجة [2] .

وإلى شمال منطقة ناصر وغربها كانت سطوة أبي ريشة المشهورة سائدة، وربما كانت بين المنطقتين أراض وعرة وخالية من السكّان، وكان هذا الاسم وراثياً يطلق على أعظم شيخ، من مجموع القبائل. وكانت عانة قاعدّة

[1] - أوبنهايم ، ماكس فاين ، 2008 م ، دار الوراق ، من البحر المتوسط إلى الخليج ، الطبعة الأولى ، لندن ،الجزء الرابع ، ص (202) .
[2] - تافرنييه ، رحلة الفرنسي تافرنييه ، ترجمة كوركيس عواد و بشير فرانسيس ، الدار العربية للموسوعات ، ط1 ، 2006، ص (80) .

حكمه، كما كانت ديرته ممتدة من هيت إلى بيره جيك وأطراف منطقة العشائريّة السوريّة. وكانت طيبة ومسكنة له. فأصبح أبو ريشة بذلك اسماً مخيفا لباشاوات ديار بكر وبغداد وحلب، وقد وجدت سلالته قبل القوات العثمانية في سورية والعراق. فوجدت فيه الدولة العثمانية عدواً لا يغلب وخصماً مغروراً قلما كان يخضع. وفي عام (1574) م (982 هـ) كان ملك بلاد العرب هذا قد تعرض مراراً لموظفي السلطان. ولما كان نصب ابنه في حصن نهر ساحلي في غالانتزا قبض عليه جند الدولة وأرسل به إلى مدينة استانبول حيث قطع رأسه هناك. على أن هذا لم يضعف من شوكته ولم يعدل به عما تعوده من الغزو وجمع الخاوة. وقدم إليه قنصل البندقية في حلب الهدايا مرة. كما أن المسافرين والسياح كانوا يعدونه ملكاً. وقد اعترف الأتراك بأمارته في عانة وأدخلوه في ضمن طبقتهم البيروقراطية كسنجق بكي لمنطقته، وكانت الرسوم الجمركية المجبية في مركزه تشاركه الخزينة التركية فيها اسمياً، كما أن القوة الحقيقية التي كان في إمكانها أن تفتك بالمسافرين أو تحميهم كانت قوته وحدها. ولقد تقرر باتفاق عقد قبيل عام (1575 م) (983 هـ) أن يدفع له السلطان سنوياً6000 دوكة وأن يعترف بحكمه الوراثي. وفي سنوات القرن الأول كان الأمير المالك أحمد (أو حميد)، وكان أبناء أخيه الثائرون يمعنون في عبثهم الذي اعتادوه بالأمن تهاوناً بسطوته. (لونكريك ، 1984) [1] .

أما الوضع الإداري فقد كان بيد الموالي من بيره جك إلى عانه وصولاً إلى بغداد، وقد استمر هذا الوضع حتى عام (1822 م) و يذكر المنشئ البغدادي في رحلته أن (هيت –عانة – جبة – الرّحبة) هذه البلدان الأربعة معمورة، وتقع على ساحل الفُرات، وحكامها يلقبون بـ (أمير) [2] .أما سلطة الأتراك في القسم السوري فقد كانت في بعض المناطق على الشكل الآتي :

بيره جيك : يوجد فيها سنجق ، وكتخدا ، وأمين .

الدَّيْر: يوجد فيها سنجق تركي وقاضي.

القسارة : يحكمها سنجق تركي .

- **استنتاجات وتفسيرات علمية ولغوية.**

أولاً : تفسير علمي في جغرافية المسميات (الزويّة) .

أشار الرحالة في الصفحة (59) إلى أن الأراضي التي تقع على الضفة اليسرى من نهر الفرات في العراق يطلق عليها (zouia) .

من خلال تتبع التسمية المحلية للأراضي القريبة من نهر الفرات على الضفة اليمنى واليسرى في الجانب السوري نستنتج أن السكان المحليون يطلقون عليها اسم الزويّة ، إضافة إلى الأراضي القريبة من نهر الخابور في الجزيرة السورية ، ومن هنا نستدل أن كلمة الزويّة في اللهجة المحلية لسكان الأرياف يقابله كلمة الزور في اللهجة الرسمية أو في تسمية أهل المدن والبادية على حد سواء، أي أن أهل الرّيف عموماً يطلقون كلمة الزويّة على الأراضي القريبة من النّهر بينما أهل المدن يطلقون على الرّيف اسم الزور ،ومنها المحاصيل الزراعية الناتجة من أراضيه مثل خيار زوري، بندورة زورية، وكذلك سكان البادية يطلقون على كامل الشريط النّهري

[1] - لونكريك ، ستيفن هملسكي ، أرع قرون من تاريخ العراق الحديث ، ترجمة جعفر خياط ، ط 4 ، بغداد ، 1968 ،ص (80)

[2] - البغدادي رحلة المنشئ ، 1948 م- نقلها عن الفارسية عباس العزاوي المحامي ، مطبعة شركة التجارة والطباعة المحدودة ، ص (99) .

اسم الزور وعلى ساكنيه اسم زوري، أما لفظة الزوية فهي محصورة بساكني الزور التي يطلقونهاعلى الأراضي القريبة من نهري الفرات والخابور .

كان وادي الفرات خلال رحلة كاسبارو عبارة عن سهل متجانس ذي وتيرة واحدة، وكان يوجد على ضفاف النهر دغل كثيف من نباتات وأشجار مرتفعة ومتوسطة الارتفاع ،وكان يطلق عليه اسم الزور ورغم ذلك نلاحظ أن الرحالة أغفل هذه الكلمة من سورية والعراق رغم أن هناك رحلات جاءت إلى وادي الفرات قبل رحلة كاسبارو وبعده تحدثوا عن كلمة الزور .

ثانياً : تفسير لغوي :في أثناء حديث الرحالة عن الموازين ذكر أن المن البغدادي في حساب حلب يساوي رطلاً وخمس أوقيات ونصف، وأن (68) مناً وثلاثة أسباع المن تعادل قنطاراً حلبياً أي (100) رطل ، وتساوي في حساب البندقية (720) ليبرة بندقية، والليبرة الصغيرة أو الضعيفة في حساب البندقية كانت تساوي (0.301) كغ، أما الليبرة الكبيرة أو السمينة فتساوي (0.477) كغ . وماتزال الكلمة مستخدمة في كلام العامة في محافظة دير الزور للدلالة على دقة الوزن وليس على حجم الوزن فيقال جاء الوزن على الليبرة.

الخاتمة:

تعد كتب الرحلات مصدراً مهماً في كتابة تاريخ أي منطقة وجغرافيتها في ظل قلة المصادر والمراجع، وتزداد أهمية الرحلات إذا مانظرنا إلى طبيعة المناطق الجغرافية التي يتحدث عنها الرحالة، فكتب الرحالة تتفرد في تركيزها على مفردات الحياة اليومية وتفاصيل اجتماعية واقتصادية، وعليه فإن الباحث في تاريخ وادي الفرات الحديث يسعد كثيراً عندما يسمع أن رحلة ما قد اكتشفت وحققت، لعل أن يكون بها مايغطي بعض الجوانب الناقصة.

رحلة كاسبارو بالبي ليست رحلة استطلاعية، بل هي مجموعة ذكريات، لذلك فهو لايذكر من مشاهداته إلا النذر اليسير وخاصّة في القسم السوري من وادي الفُرات، ويتسم الكتاب بنظرة تجارية صرفة للأمور، فهو يهتم بالأمور التجارية أكثر من غيرها .

إن مايخص وادي الفرات في القسم السوري في هذه الرحلة جاء مخيباً للآمال، وذلك بعد عرضه على ميزان النقد والتمحيص والمقارنة، فقد جاءت معلوماته عن وادي الفرات ناقصة، لذا كان البحث من أجل سد النقص من خلال البحث في رحلات أخرى للفترة الزمنية .

ومن خلال هذا البحث توصلنا إلى النتائج الآتية:

1- اتسم وصف الرحالة لوادي الفرات في القسم السوري بالسرعة، وعدم الغوص في التفاصيل، فالإيجاز الشديد كان صفة كتابته عن سورية.
2- اشتهرت بيره جيك هيت بصناعة القوارب أو الشختور جمع شخاتير وهي لفظة لاتزال مستعملة في مدينة دير الزور إلى يومنا هذا، وهي قوارب تستخدم للتنقلات العادية .
3- قاع نهر الفُرات ضحل في بعض المناطق لدرجة أن المراكب ذات الحمولة الكبيرة ترتطم بقاع النّهر حيث تكون تحته صخور، أو أن قاعه رملي يؤدي إلى انغراس السفن .
4- كانت الدولة العثمانية تستخدم نهر الفُرات في تنقلات الضباط والعتاد.
5- قدم الرحّالة رواية منفردة أن الدَّيْر(دير الزور حالياً) كان يطلق عليها ميناء السلسلة.

6- اختلاف ضرائب العبور بين حلب والرّقة والدَّيْر.
7- فيما عدا الرّقة التي تقع على الضفّة اليسرى لنهر الفُرات، فإنّ معظم السناجق العثمانية في الدَّيْر والرّحبة والعشارة كانت على ضفّة النّهر اليمنى، هذا يعني أن العثمانيون أهملوا الضفّة اليسرى إدارياً
8- عند كل مدينة (بير جيك – الرقة – الدير) ، جميع الموظفون العثمانيون يبتزون ويتقاضون ضريبة المرور بالمدينة (القيمة)، وكانت الرحلة تضطر لدفع ضريبة المرور عند كل مدينة أو حدود كل سنجق ،خلال ترحاله في سورية والعراق كان كاسباروا يقدم الهدايا لأنه يعدُّ نفسه من الأجانب حيث قال : على حد وصفه (فلا بأس من تقديم هدية طيبة خيراً من تحمل أتعاب بغنى عنها) وهذه الهدايا تعدُّ رشوةً أو خوة للموظف .
9- اتصف وادي الفرات السوري خلال رحلة كاسبارو بأنه غير مشجر (أشجار فواكه ونخيل) وغير مسكون، والأراضي المحيطة بوادي الفرات تكاد تكون خالية من الأراضي المزروعة تقريباً .
10- معظم المدن التي مر بها كاسبارو بالبي مبنية بالطّين، وكان قليل من الدور في بعضها مبنياً بالآجر .
11- كانت جميع المدن في الفرات من بيره جيك إلى عانة تخضع لسيطرة أمراء الموالي، فكانوا كأنهم حكومة قائمة بذاتها ، يجبون الضرائب، ويفرضون الإتاوة على القوافل والسفن والمسافرين .
12- كثيراً ماربط الرحالة الأماكن الأثرية بانتشار الجن والأشباح .
13- أغفل الرحالة ذكر الأودية النهرية التي تصب في نهر الفرات في القسم السوري، بينما تحدث في العراق عن جداول وأودية نهرية تصب في نهر الفرات.
14- قارن كاسبارو نهري الفرات ودجلة بنهر النيل، كما قارن مدينة سورة بالقاهرة ووصفها بأنها أكبر من القاهرة، علماً أن كاسبارو لم يبحر عبر نهر النيل ولم يرَ مدينة القاهرة فمن أين آتى بتلك المقارنات؟

المصادر والمراجع العربية والمعربة

1- **البغدادي** ، المنشأ البغدادي ، 1948 م- رحلة المنشئ البغدادي ، ترجمة: عباس العزاوي المحامي ، الطبعة الأولى، مطبعة شركة التجارة والطباعة المحدودة ، بغداد .
2- **اللبناني** ، طوبيا ، 1932 - تفسير الألفاظ الدخيلة في اللغة العربية ، الطبعة الأولى ،مكتبة العرب ، القاهرة .
3- **السناد** ، جلال غربول،1992 م ، المثل الشعبي ودلالاته الاجتماعية ، الطبعة الأولى، دار الهجرة ، دمشق .
4- **الكرملي**، جوزبيه ، 2006 م ، رحلة سبستياني إلى العراق عام 1666 م ، ترجمة: د. بطرس حداد، الطبعة الأولى ، الدار العربية للموسوعات ، بيروت .
5- **المعجم** الجغرافي للقطر العربي السوري، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، 1992 م. (الأجزاء 2 – 3 – 4).
6- **باقر**، طه ، من تراثنا اللغوي القديم،1980 م، الطبعة الأولى، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد .
7- **بيات**، فاضل، الدولة العثمانية في المجال العربي، بيروت، 2007، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى ، بيروت .
8- **ديلافاليه** ، رحلة ديلافاليه إلى العراق مطلع القرن السابع عشر، 2006 م ، ترجمة: بطرس حداد ، الدار العربية للموسوعات ، الطبعة الأولى ،بيروت.

9- **دوسورينيه،** المسالك والبلدان في بلاد الشام في العصور الوسطى ،2013م، ترجمة وتعليق: عصام شحادات ، المعهد الفرنسي للشرق الأدنى ، الطبعة الأولى ،بيروت.
10- **س . موستراس** ، ترجمة وتعليق عصام محمد الشحادات ،2002م، المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية ، دار ابن حزم ، الطبعة الأولى ، بيروت .

11- **عطية،** عبد الرحيم حنون ، كاظم عبدالله عطية ، نهر الفرات وأهميته في نشوء الحضارة العراقية القديمة (دراسة في أهم المستوطنات التي نشأت على ضفافه) .
12- **عياش،** عبد القادر، مدن فراتية (القسم السوري)، 1999 م ،مطبعة الأهالي ، الطبعة الثانية ، دمشق
13- **كاوير،** هنري سواينسونكاوير، رحلة عبر الجزيرة الفراتية عام 1893 ،2012 م ، ترجمة: رنا أيبش ، دار الكتب الوطنية ،الطبعة الولى ، الإمارات .
14- **لاين،** إدوارد وليم ، 1999 م - عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم ، مكتبة مدبولي ،الطبعة الأولى ، القاهرة .
15- **لوي،** جاك روسو ، رحلة إلى الجزيرة العربية 1808 م ،2010 ، ترجمة: بطرس حداد ، الدار العربية للموسوعات ، الطبعة الأولى ،بيروت .
16- **لونكريك،** ستيفن همسلكي ، أربع قرون من تاريخ العراق الحديث ، ترجمة: جعفر الخياط ، الطبعة الرابعة ،1984م .
17- **موسيل،** ألو ، الفرات الأوسط (رحلة وصفية) ، مطبوعات المجمع العلمي العربي ، ترجمة: صدقي حمدي ، بدون تاريخ ، بغداد .
18- **نواب،** عواطف محمد يوسف، 2008 م، كتب الرّحلات في المغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين (11 – 12 هجري)، دراسة تحليلية نقدية مقارنة، ط1 ، دار الملك عبد العزيز،الرياض .